

المتدينون والسلطة في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني 1772-1830م

Religious Men and Power in West Algerian Beylik in the Late Ottoman Era(1772-1830)

سعدية رقاد

REKAD Saadia

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)، saadiareked09@gmail.com

تاريخ النشر: 2023/07/13

تاريخ القبول: 2023/06/20

تاريخ الاستلام: 2022/12/23

الملخص: تقدّم المصادر التاريخية المحليّة الخاصة بباليك الغرب الجزائري نصوصا إخبارية هامّة حول طبيعة وأسلوب معاملة العثمانيين للسكان المحليين، والتي تأتي في سياق الإنكار وقلة التفاعل والتعاون؛ بحيث تترك لدى القارئ صورة متناهية في السوء والقمع الذي كان يتلقونه خاصة فئة منه يمكن تسميتها تاريخيا بالمتدينين من العلماء والفقهاء وشيوخ الزوايا. النصوص التي سنحاول تقديمها تشير إلى حدوث تجاوزات كبيرة قد تصل حد التصفية الجسدية، فضلا عن تقديم وصف للطرق والوسائل المعتمدة. نجد هذا في كتابات كل من الزباني والمزاري وغيرهما؛ وذلك في خضم علاقة تتسم بالتوتر والاضطراب بين السلطة العثمانية ومجموع شيوخ الدين الذين يمثلون النخبة المحلية خلال هذه الفترة. لعنّا في عرضنا هذا نحاول معرفة ما إذا كان هذا الموقف تراكم لمواقف يمكن اعتبارها أصلية في نظرة الساكنة المحلية أم نتيجة تغييرات في السياسة العثمانية في الفترات الأخيرة لحكمها للجزائر..

الكلمات المفتاحية: القرن الثامن عشر، الإفتاء، شيوخ الزوايا، السلطة، بايلك الغرب، المتدينون.

Abstract: The Algerian sources and narrations related to what is known historically: western Beylik given an important information about the nature and style of the Ottomans' treatment with a local population, which comes in the context of denial and lack of interaction and cooperation, leaving the reader with an extreme picture of the bad and oppression they received, especially a group of them that can be historically called religious scholars (practitioners) and jurists and saints (Shuyukh ez-Zawaya).

The texts that we will try to present indicate the occurrence of major transgressions that may amount to physical liquidation, as well as a description of the methods and means adopted. We find this in the writings of Ziānī, Mazārī, and others, in the midst of a tense and turbulent relationship between the Ottoman authority and the entire religious Shuyukh representing the local elite during this period.

Also in this presentation we are attempting to find out whether this attitude is an accumulation of attitudes that can be considered original in the view of the local population or as a result of changes in Ottoman policy in the last periods of its rule of Algeria.

Keywords: 18th Century, Abolition, Saints, Local Power, Western Beylik, Practitioners.

المؤلف المرسل: سعدية رقاد، الإيميل: saadiareked09@gmail.com

1. مقدمة:

تذهب بعض المدونات المحليّة للفترة العثمانية؛ وكذا مجموعة من الدراسات إلى بناء صورةٍ نمطيةٍ للعلاقة، التي جمعت السلطة العثمانية بالعلماء ورجال الزوايا الذين يمثلون النخبة المحلية في الجزائر نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ميلاديين، حيث عملت السلطة المحلية على تكريس مبدأ الاستمالة والتقرب من هؤلاء المتدينين وبالخصوص فئة المرابطين والطرقين، وذلك بمنحهم امتيازات وصلاحيات عديدة ساهمت بدورها في تمجيد طابع التعايش السلمي بين الجانبين. إذ اعتبرتهم قوة دعم وعامل تهدئة واستقرار في البلاد خاصة أمام الظروف الصعبة، التي كانت تعيشها المنطقة، بسبب التحرشات الاسبانية. وهو الحال الذي جعل العلاقة بينهما تتسم بالتقارب والتفاهم إلى مستوى التشارك في الحملات العسكرية، التي كان للعلماء وللطلبة دورا كبيرا فيها؛ على غرار الفتح الأول والثاني لمدينة وهران وإنهاء وجود الاسبان في السواحل الغربية.

غير أنّ هذه العلاقة سرعان ما بدأت تتأزم وتتلاشى؛ في الفترة الأخيرة من حكم البايات؛ حيث تغيرت الأمور وتأثرت العلاقات من التحالف الى التنافر القوي والتجاوزات غير المحدودة بين الطرفين.

وكانت العلاقة؛ التي جمعت بايات وهران المتأخرين بالعلماء؛ ورجال الزوايا مثالا عن مظاهر التوتر والاضطراب. وقد حاول بعض الباحثين التطرق إلى هذا الموضوع والخوض في تشعباته ورغم متانة العرض (بوجلال، 2016) (طوبال، 2019) والتقصي فيه؛ إلا أنّ هذه الدراسات بقيت أسيرة التفسير المعاصر لما آلت إليه أوضاع الجزائر العثمانية؛ خلال تلك الفترة، ولم يتعداه إلى محاولة تفسير طبيعة وأسباب هذا التغير؛ الذي استوجب على العثمانيين أسلوبا آخر غير معهود في ظل وضع متردٍ وأخطار محدقة.

ونسعى هنا بمنطق موضوعي بعيد عن كل أشكال التحيز المخالف للروح العلمية الاكاديمية: "فما طبيعة الصورة المتكونة في ذهنية الحاكم العثماني التركي والكرغلي القريب من البيئة الأم وعلاقتها بالنخب الدينية المحلية؟"، وكيف تميز الوضع العام لرجالات العلم والمعرفة في الغرب الجزائري إبان تلك الفترة؟ نتائج تلك العلاقة القائمة على التجاوزات وآثارها في المخيال الصوفي والثقافة الشعبية عامة؟

سنحاول فحص واستقراء بعض المصادر المحلية وتوظيف نصوصها، التي تتحدث موضحة طبيعة المواقف الذي اتخذتها سلطة البايات تجاه رجالات العلم والدين في المنطقة الغربية، مستخدمين المنهج التاريخي بالاعتماد على أداتي التحليل والاستنتاج لدراسة الموضوع وبلوغ أهدافه. وفق مصدرين هامين: "دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران" لابن يوسف الزيّاني -الذي حققه الشيخ المهدي البوعبدلي رحمه الله- و"طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا الى أواخر القرن التاسع عشر" للأغا بن عودة المزاري -الذي

حققه الدكتور يحي بوعزيز رحمه الله- حيث تبدو أهميتهما كونهما قدما معلومات مهمة وإشارات واضحة حول مجموع المواقف بين العلماء المتدينين الصوفيين والسلطة العثمانية الى جانب كونهما من الشهود العيان على تلك الأحداث والوقائع خلال الفترة المدروسة. كما سنستأنس بمصادر ومراجع أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها تتناول الموضوع.

2. ملامح القطيعة بين السلطة العثمانية والمتدينين:

تعددت الأسباب والظروف المحيطة المتسببة في توتر العلاقة بين الطرفين، يمكن حصرها فيما يلي:

1.2. السياسة الاقتصادية السلطوية في بايلك الغرب أواخر العهد العثماني:

تعتبر الكتابات الخاصة بفترة الدايات 1671-1830 م التي ظهرت أواخر القرن الثامن عشر الميلادي (الثاني عشر الهجري) تدوينا مميزا لملامح المنظومة السياسية للحكم العثماني في الجزائر، فبالرغم من طول الفترة عن سابقتها فقد صورتها بأنها فترة مليئة بالفوضى والاضطرابات التي كانت تعصف بالبائلك من حين الى آخر (مسلم، 1974)، الحال الذي انعكس على الأوضاع العامة للبلاد بما فيها سياسة الأمن والاستقرار والعلاقة بين النخب المحلية والسلطة؛ لعلّ من أهم تلك المظاهر: هيمنة السلطة المركزية وفرضها للضرائب المجحفة على عموم الساكنة بالجزائر وبالمناطق الغربية خاصة؛ حيث تطورت وتضاعفت أكثر في هذه الفترة لأسباب متعددة شهدت موارد الخزينة الجزائرية أهمها: تراجع الغزو البحري وفوائد التجارة، وكذا حقوق التولية والمصادرات والجباية الضريبية التي تمثل أحد أبرز روافدها (دحماني، 2003، صفحة 119). فقد انهار نظام الجباية في الجزائر وباقي الأقاليم التابعة لها بما فيها اقليم بايلك الغرب. في هذا المقام يصف الشريف الزّهار الوضع قائلا: " هكذا وضع الأوائل الجباية على المنهج الشرعي والأواخر صاروا يخرجون المحلات للاستخلاص المغارم والظلمات، ونهب أموال المسلمين، وما وقع هذا حتى صار الناس فجارا، والأمراء ظالمين" (الزهار، 1980، صفحة 35)، كما يضيف ابن سحنون الراشدي قائلا: " وفرضوا على الناس المغارم شتاء وصيفا وعينوا للجند عطاء مخصوصا.... وضربوا عليهم البعوث تخرج كل سنة أواسط أبريل الى عمال الجباية فمنهم من يرجع بعد أربعة أشهر ومنها من يرجع بعد سنة وغير ذلك" (الراشدي، 2013، صفحة 460) وخير مثال على ذلك ما ورد عند الزباني حول الموقف التسلطي للباي حسن على الرعية وانهاكهم بالضرائب في الجهة الغربية قوله: " إنّ أهل الجزائر قد أكلوني بالكلية لذا تراني أكل الرعية...." (الزباني، 2013، صفحة 312)

2-2-الاهمال الاجتماعي في مواجهة الأوبئة:

فبالإضافة الى ما سبق ورغم الظروف والأوضاع السيئة التي كان يمر بها اقليم الغرب؛ من انتشار للمجاعات والأوبئة، التي كانت تضرب من حين الى آخر البلاد، إلا أنّ الباي حسن واصل جمع واستخلاص الضرائب من الرعية؛ وهو الأمر الذي أشار اليه المزاري بقوله: " وفي فصل الربيع سنة 1827، وقع غلاء عظيم وقحط فيه الناس الى أن صار الباشا يفرق الرغيف بالمدن على الناس، فسمي بعام خبز الباشا... وتواتر على الألسنة، وكان الأولياء في المستتب تقول: آخر الترك من يسمى حسن، ومنهم من يقول سيأتي الباي حسن يأكل الرتعة ويزيد الرسن، ومعنى ذلك أنه يأكل الرتعة وهي الرعية ويزيد الرسن وهو العمال، فكان الأمر كما قالت الأولياء". (المزاري، 2009، صفحة 361)، وقد اتسمت سياسة العثمانيين في مواجهة أغلب الطوائع التي عرفت هذه الفترة بالإهمال ونقص التدابير وهذا ما أدى الى إفناء قرى وبلدات بأكملها.

ومما زاد من نفور العلماء ورجال الطرق الصوفية إلزامهم بدفع الضرائب، بعد أن كانوا غير ملزمين بها في كثير من الأحيان، كما كانت الجباية لفترة طويلة في مناطقهم لصالحهم؛ فهم الذين يجبرونها، وهذا ما أدى الى ازدياد التنافر بين الطرفين. (عبو، 2016، صفحة 203)

هكذا إذا كان حال السلطة العثمانية، جمع الأموال والتعنيف كما صورته هذه الكتابات السابقة، الأمر الذي اعتبره سكان الغرب الجزائري وضعاً جائراً يستوجب تغييره؛ فقامت لأجل ذلك العديد من التمردات والثورات؛ تزعمها علماء الدين بمثابة رد فعل رافض ومقاوم لتلك السياسة الضريبية التعسفية لإدارة البايلك. (دحماني، 2003، صفحة 125)

3.2 تحرير مدينة وهران والمرسى الكبير وانعكاساته على وضع النخبة المحلية:

كان تحرير وهران والمرسى الكبير من الاهتمامات الكبرى لحكام الجزائر؛ كما أضحت الشغل الشاغل للسكان بما فيهم رجال الطرق الصوفية والعلماء الذين تحالفوا مع القوة العثمانية من أجل الفتح ودحر الاحتلال الاسباني (بوعزيز، 1991، الصفحات 51-52)، وقد تشكلت النواة الأولى للعلاقة الودية بشكل واضح خلال الفتح الأول لوهران لتتعزيز بقوة أثناء الفتح الثاني واسترجاع المدينة والمرسى الكبير. وقد أشارت العديد من المصادر التاريخية الى الجهد الكبير الذي بذله العلماء وطلبتهم في سبيل التحرير. (حمادو، 2017)

حيث تم ترتيبهم في رباطات عسكرية كرباط صلب الفتح؛ ورباط افري ورباط جبل المائدة. (بوعزيز، دور العلماء والرباطات في تحرير مدينة وهران من أيدي الأسبان، 1988)

كما ألف الكثير من العلماء والشعراء مؤلفات وقصائد (ابن ميمون، 1981) (الفاسي، 2003) (الراشدي، 2013) حول الفتح؛ مدحوا الحكام الفاتحين أمثال الداوي بكداش والباي أبو الشلاغم، وكذا الباي محمد بن عثمان الكبير. لكن العلاقة بين هؤلاء مالت مع خلفاء الباي محمد الكبير الى التدهور والتوتر فالنزاع في الأخير؛ وهذا ما سنحاول التطرق اليه وتوضيحه.

نستخلص من ذلك أنّ فتح وهران والمرسى الكبير عام 1792م، شكل الحلقة الأخيرة من مظاهر التقارب والتحالف بين السلطة العثمانية والنخبة المحلية في الجهة الغربية والعكس صحيح.

4.2 الثورات المحلية وموقف العلماء البارزين منها:

مع بداية القرن التاسع عشر؛ اتخذت وتيرة العداء بين الحاكم والمحكوم منحى تصاعديا خطيرا تمثل في اندلاع ثورات محلية وطنية عارمة تجلت في انتفاضات شعبية كبيرة؛ اشتهر منها ثورة درقاوة والتيجانية (المزاري، 2009، الصفحات 302-354) (الزياني، 2013، الصفحات 313-393)، ففي عهد الباي عثمان بن محمد باي قسنطينة اندلعت ثورة الشريف أحمد بن الاحرش الدرقاوي بالشمال القسنطيني، وكلفت البايك خسائر فادحة. نفس الأحداث عرفت في الجهة الغربية من الجزائر حيث واجه خلفاء الباي محمد الكبير ببايك الغرب عداء مستحكما من طرف رجال الدين وقيام ثورة عارمة ضد التسلط العثماني تزعمها محمد الشريف الدرقاوي؛ حيث استمرت مدة طويلة من 1805-1809م، وتسببت في اضعاف البايك وإنهاك سكان الأرياف اقتصاديا. لم تخدم تلك الثورة حتى أعلنت الطريقة التيجانية بزعامة محمد الكبير التجاني الثورة على العثمانيين بالجنوب والغرب الجزائري عام 1818م، حيث وصلوا غاراتهم نواحي غريس وجهات التل الوهراني (سعيدوني، 1984، صفحة 39). وحسب المصادر التاريخية فإنّ هذه الثورات كانت عبارة عن ردود أفعال تجاه سياسة الحكام العثمانيين وما اتسمت به من جور وظلم. فقد ذكر الأغا المزاري أن ابن الشريف الدرقاوي قدم له الناس الهدايا والعطايا، وكانوا يشتكون اليه أضرار المخزن وكثرة المغارم؛ فكان يعدهم بالفرج القريب الى أن قام بثورته. (المزاري، 2009، صفحة 304)

أما بخصوص ثورة محمد الحافظ التيجاني فقد ورد بشأنها: "أنّ الترك الذين بالجزائر، كانوا يقدمون قوانينهم على قانون الشرع، ويحكمون بغير ما أنزل الله،... وكانوا في غاية الاستبداد، وكان حكمهم كله طغيان". (دحمان، 2003، صفحة 135)

وقد تباينت آراء ومواقف العلماء والفقهاء من هذه الثورات، فهناك من اعتبرها مضرّة للبلاد والعباد وأنها أفسدت النسل والزرع؛ ومن أبرز هؤلاء العلماء العلامة أبو راس الناصري المعسكري الذي سماها بـ"الفتنة"، وألف كتابا حولها حمل عنوان "درء الشقاوة في حروب درقاوة" (الناصر، 1990، صفحة 118)، مما صرح به: "...ثم

عمتنا فتنة درقاوة وأنا لم نكن فيها، كما قال الشيخ عامر الشعبي للحجاج بن يوسف: وقد خبطتنا فتنة لم نكن فيها أتقياء بررة ولا أقوياء فجرة... فاتصلت علينا صراصر النكبات والبليات من الخوف والجوع والروع الذي في الفؤاد مودوع، وقد ناداني لسان الحال بقوله: دع الدفاتر للزمان الفاتر، فطرحنا الكتب بمترك مكان، واستمر عليها النسيان حتى نسجت عليها عناكب الهجران" (الناصرى، 1990، الصفحات 49-50). وبالرغم من موقفه المعارض إلا أنَّ العالم أبو راس لم يسلم ككثير من علماء عصره من تهمة مساندته لها بسبب الوشاية من حساده (بوشنافي، 2014، صفحة 25)، نفس الموقف والميول نجده عند العلامة مسلم بن عبد القادر، الذي كان كاتباً للباي حسن؛ وهو صاحب كتاب "خاتمة أنيس الغريب والمسافر"؛ حيث أكد قائلاً: "ثم تجرأ الدرقاويون على الأتراك، وزحفوا إلى وهران لمحاصرتهم، فخرج الأتراك إليهم وحاربوهم، وهزموهم وعادت الثقة إلى رجال المخزن" (مسلم، 1974، صفحة 27).

أما الجانب الآخر -العكسي- فنجد العالم "المعسكري" العربي المشرفي المشهور "بأبي حامد" من العلماء الذين أنصفوا الثورات المحلية ووقفوا إلى جانبها، رغم أنَّ كتابه "درء الشقاوة عن سادات درقاوة" (المشرفي، 2011، صفحة 58)، جاء بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، إلا أنه نوه إلى مواقفه المؤيدة التابعة للطريقة الدرقاوية (المشرفي، 2011، صفحة 409)، ومما ورد في كتاب الحسام المشرفي حول هذه الثورة وأسبابها قوله: "وذلك لما اشتدت شوكة الأتراك، ومالت الناس من كثرة الظلم إلى الإشراف... فسلط الله عليهم بسبب الظلم الواقع... شخصاً من هذه الطائفة الدرقاوية من الزاوية الغريسية الشرقاوية قام عليهم في شر ذمة من أهل وسيلته قليلة ولمتانة دينها ووثنوق عهدها فنة جلييلة، فشئت بها شمل المحال.... وهي أول هزيمة وقعت للأتراك" (المشرفي، 2011، صفحة 390).

هكذا يبدو من هذا النص أنَّ أبو حامد المشرفي كان متعاطفاً مع الدرقاويين، وهو يمثل مستوى انتقاد النخب العلمية للسياسة العثمانية حتى بعد انهيارها.

3. احتدام المواجهة الحربية بين الطرفين:

نتيجة الثورات المشار إليها أعلاه وموقف العلماء وشيوخ زوايا منها توجهت السلطات ببيليك الغرب نحو المواجهة العسكرية مع مجموع الطرق والزوايا الدينية ومريديهم وعلى رأسهم العلماء؛ فحسب المعلومات التي مكنتنا المصادر المحلية من رصدها وقراءتها فإنَّ الباي حاج خليل (حكم ما بين 1772م-1778م) الذي عرف بتسلطه على العلماء والأولياء حيث كان يتوعدهم بالقتل والتكيد؛ إذ يقول عنه صاحب دليل الحيران: "وكان لا يحب الأولياء ولا غيرهم" (المزاري، 2009، صفحة 287) ويصفه المزاري بالقول: "كان مبغضاً للعلماء والأولياء وغيرهم".

من ذوي النفع (الزياني، 2013، صفحة 259) وأحسن مثال على ما فعله مع سيدي المداني بن عطاء الغريسي وصديقه سيدي الحاج بن سعيد الشقروني المعروف بالسيد الحاج موفق... الذين توعدهما بالقتل حال رجوعه من السفر (الزياني، 2013، صفحة 260) (المزاري، 2009، صفحة 288) أما الشيخ والعالم أبو ترفاس محمد الساحلي فقد غزاه الباي الحاج خليل بمدشره بالساحل وأخذ قيطنته -زاويتة- وفرق طلبته وهم بقتله، لولا أن عصمه الله منه؛ فقال له الشيخ أبو ترفاس: نحن مساكين لا معرفة لنا بالملوك ولا دخول لنا في شئونهم، وفضحنا علانية بلا سبب فضحك الله وعجل بهلاكك لتستريح منك البلاد والعباد". (الزياني، 2013، صفحة 259) (المزاري، 2009، صفحة 288)

كما تشير نفس المصادر أنّ الباي الحاج خليل أصيب بدعاء العلماء والأولياء إثر تطاوله وتحامله عليهم، مما عجل بوفاته سنة 1778م، بعدما ابتلاه الله بمرض يقال له الشهدة؛ وهي حبة عظيمة أصابته بين كتفيه حتى ركبها الدود، فحملوه الى تلمسان في أرذل حال ودفن في قبة سيدي محمد السنوسي. (المزاري، 2009، صفحة 310)

إلى جانب الباي حاج خليل، فقد اشتهر الباي محمد بن عثمان الملقب بـ"المقلش" بحروبه ضد الدرقاويين (الزياني، 2013، صفحة 299)، فكان يلحق الضرر بالرعية والمشايخ ورجال الدين، الذين ينتمون الى أتباع الدرقاوي. ومما وقع بين أيدينا ما ذكره الزياني في كتابه، بشأن ما حدث لقرية الشيخ أبي ترفاس بتلمسان من إبادة وحشية؛ حيث يعد هذا الأخير من ذرية العلامة أبو ترفاس السابق ذكره، والذي غزاه وقتله الباي حاج خليل في فترة حكمه. يقول في شأنه: " فغزا صهره الشيخ أبا ترفاس، لما سمع بالدرقاوي عنده على غفلة من الناس، ولما سمع الدرقاوي بنهو ض الباي اليه، فرّ هاربا متذللا وأخلى الأرض من بين يديه، وافترقت من حينها جموعه، وجاءت عجلة قواطعه وقمعه، فزاد الباي للساحل، وأخلى الباي منه ما أخلى وقتل ما قتل، وأجلى ما أجلى، وخرب قرية أبي ترفاس، واحتطب أجنحتها، وسلط عليها أذاها ومنتها، ولما فعل ذلك بقرية الشيخ أبي ترفاس، قال له: أيها الباي لما فعلت بنا هذا ونحن من ضعفاء الناس؟ فقال له أنّ صهرك درقاوي، فأنت مثله، وأحوالك ببداية، فقال له: إني شيخ طلبة، وعابررتني بالتدريقي ولست من أهله، وخربت مكاني، خرب الله عن قريب مكانك، ولبس لك عباية." (الزياني، 2013، الصفحات 311-327) (مسلم، 1974، صفحة 32) ويعتبر الباي محمد بن عثمان المقلش من البايات الذين نكلوا بأتباع الطريقة الدرقاوية وكل من يقف إلى جانبهم.

في سياق متصل يعدّ الباي حسن الملقب بالباهج (المزاري، 2009، صفحة 351) (الزياني، 2013، صفحة 311) من الحكام العثمانيين، الذين انتهجوا سياسة قمعية علنية ضد العلماء وشيوخ الزوايا، الذين كانوا

يقتنون المنطقة الغربية من أيلة الجزائر، كما تفنن في الأساليب الاجرامية والعقابية التي مورست عليهم؛ حيث استخدم فيها التصفية الجسدية مع التمثيل والتكيد بالجنث خاصة تجاه أتباع الطرق الصوفية وكل من يظهر عليه ذلك.

هكذا فقد أرخت لنا المصادر التاريخية لنماذج من هذه الوقائع المؤلمة، كما وصفته باجترائه على العلماء والأولياء والشرفاء والرعية... فظهر منه الجور والظلم والتعدي، وكثر منه الظلال وهتك المحارم (المزاري، 2009، صفحة 361) (الزياني، 2013، صفحة 320). وقتل الباي حسن الكثير من العلماء والفقهاء ورجال الطرق الصوفية، وقد كان يقضي على كل من يشك فيه حتى بمجرد الوشاية كما كان لا يقبل شفاعاة ولا وصاية أحد...؟ هذا كله يندرج للأسف في إطار سياسة التصفية ضد المعارضين للحكم العثماني.

ومن أبرز الشخصيات العلمية التي راحت ضحية هذه الانتهاكات: الفقيه الشيخ الحاج محمد البوشيخي الذي علقه على خشبة، وقال له: "هذا جزء من يريد الظهور والاعلان" (المزاري، 2009، صفحة 351) (الزياني، 2013، صفحة 320)، وفي سنة 1824م، قتل ونكل بجثة العلامة والفقيه محمد ابن أحمد الصدمي من أولاد سيدي بن حليلة، حيث صلبوه وتم قطع رأسه وعلق على خشبة بوهرا، وتوالت الاغتيالات، ففي نفس السنة أمر بقطع رأسي الفقيهين العالمين السيد بن عبد الله بن حواء التجيني الدقاوي، والسيد فرقان الفلتي " (المزاري، 2009، صفحة 361) (الزياني، 2013، صفحة 325). فالظاهر أن هذه الاغتيالات كانت تتم بطرق وحشية غير مسبوقة من قبل؛ كالصلب وقطع الرؤوس لأجل إرهاب الرعية والاستبداد بالحكم، بالإضافة الى محاولة نشر الخوف والهلع وردع كل من يحاول العصيان والتمرد أو القيام بالثورة على الحكم العثماني.

لعل من الجرائم الشنيعة التي حدثت بوهرا سنة 1828م وتركت أثرا كبيرا في المنطقة ما وقع للأديب والعالم السيد محمد بن قريد الغربي وعائلته؛ حيث قتل العالم ببيته بخنق النطاح على يد لصين هاجما بيته ودافع عن نفسه دفاعا الى أن قتلاه (المزاري، 2009، صفحة 367) (الزياني، 2013، صفحة 325). أما عائلته فقد راحت ضحية بطش وفضاعة الباي حسن، حيث ذكر المزاري أنه وبعد مقتل العالم ذهبت زوجته الى الباي شاكيتين، فأمر بتشكيريها ورميها في البحر دون حوار أو معرفة للأسباب، ورغم أنه قيل للباي أن احداها حاملا؛ فقال: " ليست تأتي بابتن قريد في القابل، فنفض فيهما الأمر تنفيذًا واستحوذ بهما تحويذا، وأمر بحرق نوائل تلك الحومة وصيرها نتوح بها البومة" (المزاري، 2009، صفحة 363) (الزياني، 2013، صفحة 322).

ومع كون النص يُظهر الباي حسن بصفة "المتسلّط"، فإنّ المصادر المتاحة لدينا لا تشير الى الأسباب الكامنة وراء مقتل العالم وأسرته، والراجح أنّ الباي أراد تصفية العالم محمد بن قريد الغربي بطريقة ما؛ في حين زوجاته فكانتا ضحية لتلك المواجهة بينهما.

كذلك فإنّ ممن حدثت بينه وبين الباي مواجهة، الشيخ بلقندوز القادري التيجاني؛ حيث يعد مقتله من أكثر المواجهات تأثيرا في نفسية العلماء والأولياء ببایلک الغرب. ففي حدود سنة 1829 توجه الباي حسن بجيش كبير الى زاوية الشيخ بلقندوز، التي كانت تعج بطلبته من أنحاء مختلفة من أبناء البرجية والزماله وبعضهم من بني عامر والحشم وفليته ومجاهر وبني شقران... وعندما رأى الباي أنه ليس عنده سوى جموع الطلبة يتعلمون القرآن؛ قال: "مثل هذا لا يثور علينا ورجع" (المزاري، 2009، صفحة 364) (الزياني، 2013، صفحة 322)، ثم غزاه مرة ثانية في نفس السنة وأرسل له أحد رجاله يقال له "ابن دهماء العامري" لقتله؛ حيث قيده وأعدمه شنقا بمنطقة "واد أرهيو" أمام طلبته (الزياني، 2013، صفحة 321) (المزاري، 2009، صفحة 364). ويذكر المزاري أنّ الباي حسن عزم على قتل الطلبة أيضا لولا تدخل السيد مصطفى بن اسماعيل البحتاوي الذي أقنعه بشر ذلك وأن يتركهم وشأنهم (الراشدي، 2013، الصفحات 54-55).

وقد خلف مقتل الشيخ بلقندوز صدى كبيرا في نفوس طلبته وعلماء المنطقة، حيث نعاه الكثير منهم بقصائد شعرية وراثه الشيخ الشارف بن تكوك -وهو أحد تلاميذه- بقصيدة عرفت بالغوثية. لازالت تردد في الأوساط الشعبية وينشدها طلبة الزوايا كل ليلة جمعة؛ مما جاء فيها:

أَرْحَمُ شَيْخِي بَلْقَنْدُوزُ	مَرِيدُ الشَّيْخِ الْمَعْرُوزُ
عَبْدُ الْقَادِرِ بِهِ تُفْتَنُوزُ	عِنْدَ رَجُلٍ الزُّرْمِيَا
بَلْقَنْدُوزُ أَلْمُتْرَهْدُ	فِي وَسْطِ الطُّلْبَةِ عَابِدُ

ويضيف قي آخر المراثية:

يَارَبِّ عَدْبٍ حَسَنٍ	بَزَكْتَ يَبَيْتُ اللَّهِ
وَالطَّنْبَةِ قَعَدْتَ تَنْهَانُ	وَأَفْتَرَقُوا فِي بَكْرِيَا
بِالنَّصْرِ ثَبِتَ يَدَا	أَزَجْتَرِ عَلْنَا الْأَعْدَاءُ
مَارْفَقُوشَ بِالنَّفُوسِ	يَخْدُمُوا غَيْرَ النَّحُوسِ
مَادَا قَتَلُوا مِنْ رُؤُوسِ	مَنْ سَادَاتِي الصُّوفِيَّةِ

(المزاري، 2009، صفحة 364)

إلى جانب ذلك تذكر المصادر التاريخية، أنّ عددا من الشيوخ والعلماء استهجنوا هذا التصرف، في حق العالم بلقندوز وزاويته العلمية، كما قاموا بالدعاء على البايع حسن وسياسته الاجرامية في حق رجال الدين والعلم للمنطقة الغربية؛ حيث دعا عليه الشيخ "أبو قراب" كونه من الأولياء والشيوخ الصالحين بقوله: "أتى أمر الله يا عباد الله، فأرسل الله على المحلة ريحا عاصفا بصعصعة، الى أن تكسرت ركيزة وتاق البايع وأزيل الوفاق من موضعه، وضجت الدواب بالصهيل وماجت الناس وهم خائفون من التبديل". (المزاري، 2009، صفحة 364)

كما تذكر هذه المصادر أنّ الشيخ السيد مولاي محمد الولهاسي دعا عليه أيضا قائلا: "للعجب كل العجب بالتوفيه، الترك يقتلون بالقتدوز، ومولاي محمد يموت فيه، ويموته يحصل الفرج للإسلام، ويحل بالترك الانتقام". (المزاري، 2009، صفحة 364)

في سياق آخر، يشير المزاري الى أنّ قاتل الشيخ بلقندوز ابن الدهماء، "أماته الله شر مودة ومقتة شر مقتة". (المزاري، 2009، صفحة 364) بعدما تطاول على العلماء والأولياء الصالحين.

ففي ظل السياسة السلطوية للبايع حسن ضد النخبة المتقفة المحلية، فقد كان هذا الأخير لا يعبأ حتى بالعلماء المرضى والمعطوبين؛ إذ جاء في كتاب طلوع سعد السعود وصفا لسلوك البايع حسن واهنته للشيخ الضرير ابراهيم الخروطي، بعد أن أمر أحد رجاله بإحضاره الى وهران لأمر ظهر عليه: "ولما أتاه ونظر في حاله...ولما وجده لما هو عليه سرحه لأهله" (المزاري، 2009، الصفحات 366-367) (الزياني، 2013، صفحة 324)، نفس المصادر تذكر: "أنه لم ينجو من بطش وظلم البايع حسن إلا الشيخ والعلامة السيد محمد بن عبد الله البوشيخي" المعروف عند العامة بالشيخ "ابن سحنون"، الذي كان يقطن بعين الحوت إحدى ضواحي مدينة تلمسان. وبعد الوشاية به عند البايع الحسن أمر بإحضاره للنظر في أمره، لكن استعصى ذلك على رجاله، ف قيل له لن يأتيك إلا أن تذهب بجيشك فتظفر به؛ لكن البايع حسن خاف من سوء تهوره وقال: "لا أغزو رجلا واحدا بجيشي، وربما يكون به إزالة ريشي". ليبعث له أحد الفرسان وهو محمد المزاري" ويقال أنّ البايع حسن تردد وخاف عاقبة الهجوم على الشيخ ابن سحنون لم اشتهر عليه بما يعرف عند الصوفية بالكرامات. (المزاري، 2009، الصفحات 364-365) (الزياني، 2013، صفحة 322)

وقد ذكرت المصادر التاريخية التي وقفنا عندها، تعاطف السيد محمد المزاري مع الشيخ ابن سحنون وعامله معاملة حسنة، كما حاول تبرأته من التهم المنسوبة اليه، وسأل له الأمان عند البايع حسن؛ حيث قيل أنه ولما نزل عنده ونظر في أحواله وتدبر في أفعاله وأقواله ألفاه بريئا، وأنه من الأولياء الله المتعبدين بجرحهم المعززين للفقراء والمساكين والضعفاء وغيرهم وللوافدين عليهم في محبة الله... وأنه ليس من أهل الثوران ولا خوف منه على بايع

وهران (المزاري، 2009، صفحة 365) (الزياني، 2013، الصفحات 323-324). بالفعل وعند وصوله بالشيخ الى الباي عفى عنه بعد اختباره ببعض الأسئلة؛ حيث قال له الباي حسن:

"يا هذا الرجل ما الذي يسمع عنك من اجتماع الناس في كل وقت عليك، ووفودهم في كل آن اليك، فقال له الشيخ ابن سحنون: اذن أخبروك بأني جاعل خيمة للطلبة وضياف الله، والمخزن إذا جاء فذلك حق ليس به اشتباه وإذا أخبروك بغير هذا فذلك عني بعيد، ونحن في طاعة أمير المؤمنين، كما أمرنا الرسول والمولى الكبير..." (المزاري، 2009، صفحة 366) (الزياني، 2013، صفحة 324)

من جانب آخر فقد مارس بايات وهران أساليب متعددة للتضييق على العلماء؛ فكان العزل من المناصب إحدى الطرق المطبقة، وهو الأمر الذي وقع للعلامة أبو راس الناصري الذي كان محلا لتلك الممارسات التعسفية. فبالرغم من معارضته الشديدة للثورات المحلية وموقفه منها إلا أن ذلك لم يمنعه من بطش البايات في مقدمتهم الباي محمد بن عثمان "المقلش" الذي عزله من مناصبه الرسمية كالإفتاء والقضاء (الزياني، 2013، صفحة 320) (المزاري، 2009، صفحة 361) كما تعرض علماء بايلك الغرب الى الإهانة والاضطهاد؛ إذ تعرض الشيخ العلامة محي الدين -الذي كان يشرف على الزاوية القادرية بالقيطنة نواحي معسكر- عند خروجه مع ابنه الأمير عبد القادر الى الحج الى الاعتراض والسجن ثم الإقامة الجبرية بوهران ومنعهما الباي حسن من السير الى البقاع المقدسة إلا بعد مدة من الزمن. (الراشدي، 2013، صفحة 54)

بهذا يمكن القول وبالاكتفاء على هذه النصوص أن علاقة سلطة البايات متمثلة خاصة في الباي حسن مع جموع المتدينين من العلماء ورجال الطرق الصوفية، ساءت بشكل كبير مع نهاية القرن 18 وبداية القرن 19م، فسياسته ضد النخبة المحلية ونبذ للعلماء قد أثرت سلبا على الحياة العلمية في المنطقة، وحالت دون أي إثراء أو تقدم علمي ثقافي في تلك الفترة، بل كرس الطابع العدائي بين الطرفين.

4. آثار المواجهة بين الطرفين:

أدت الممارسة القمعية التي انتهجها بعض بايات الغرب الجزائري إلى نتائج غير محمودة وتركت أثارا واضحة على الحياة العامة للسكان؛ بما فيهم العلماء ورجال الدين، كما زعزعت سبل الاستقرار والثقة؛ التي طالما عززت العلاقة بين الطرفين منذ زمن غير بعيد. ولعل من أبرز النتائج التي خلفتها تلك السياسة التعسفية ما يلي:

1.4 الهجرة والفرار:

كانت الهجرة الملاذ الوحيد للكثير من علماء المنطقة الغربية الذين نجوا من القتل وبطش البايات؛ إذ غادر عدد لا بأس به من العلماء والأدباء إلى وجهات متفرقة. حيث هاجر الشيخ شارف بن تكوك الى فاس بالمغرب

الأقصى بعد مقتل شيخه بلقندوز خنقا (الراشدي، 2013، صفحة 49)، كما هاجر الى المشرق الشيخ محمد بن عبد الرحمان البيدري التلمساني قاضي المالكية بتلمسان الى المشرق، وذلك بعد نبذه للسياسة الحكم العثماني. حيث جاء على لسان تلميذه أبو راس الناصري ما يلي:

"ونبذ تلمسان نبذا كليا واتخذها وراءه ظهريا، وقد قيل له...ومسقط رأسك فقال: هيهات قد طلقته بتاتا، قائلا: فما قلبي اليها راجع ويسفر، وكم من مثلها فارقتها وهي تصفر، فودعها وداع من لا يعود، وأعرض عن العشائر والأقارب والأهل وأضرحة الجدود ولحق بالحرمين الشريفين، وأخذ معه من العسجد أكثر من ألفين فضلا عن الورق والوريق". (الناصر، 1990، الصفحات 49-50)

في ذات السياق هاجر العلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعد التلمساني -وهو من بيوتات العلم والجاه وشغل القضاء بتلمسان- وذلك إثر سلسلة الأحداث لسياسية التي وقعت لقبيلة ولهافة في شمال تلمسان، بعد رفضها دفع الضريبة لمحلة الباي حسن بتحريض من عامل وجدة أبي العلي الادريسي. فأنفذ اليهم الباي حسن حامية عسكرية لاستخلاصها بالقوة حيث قبلت الحامية بنصب كمين أبيدت عن آخرها؛ ليخرج العالم محمد بن سعد لتهدئة الأوضاع وإقامة الصلح، لكنه اتهم بالتعاطف مع السكان فخشي على نفسه وعجل بالفرار والهجرة الى المغرب الأقصى، أين استقبله السلطان عبد الرحمان ابن هاشم، وتوفي بفاس سنة 1264هـ. 1848م. (لزع، 2014، صفحة 341) كما هاجر الى المغرب الأقصى العالم الأديب وشاعر الملحون أبو عثمان سعيد بن عبد الله التلمساني المشهور بالمنداسي وذلك في خضم سياسته الناقمة على العثمانيين؛ حيث التحق ببلاط الملك محمد بن عبد الله العلوي، ثم ببلاط مولاي إسماعيل الذي اشتهر بكرهه للعثمانيين ووصفهم بأبشع الصفات. حيث تحدث عما عانته تلمسان في آثاره عن منظومة العقيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم التي شرحها الكثير من الأدباء وعلى رأسهم أبوراس الناصري، وتوفي المنداسي بسجلماصة منتصف القرن الثاني عشر (الثامن عشر الميلادي). (الراشدي، 2013، الصفحات 58-59) (لزع، 2014، صفحة 336)

2.4. بروز الشعر الهجائي الملحون:

يعتبر الهجاء أحد الألوان الشعرية المنتشرة خلال العهد العثماني الأخير، وقد وظفه الكثير من علماء وأدباء الغرب الجزائري في كتاباتهم التاريخية؛ كأداة وأسلوب للتعبير عن الواقع المعيشي وتقلب الأحوال السياسية، كما ترك أثارا بارزة في المخيال الشعبي والثقافة الصوفية المحلية. ومن العلماء الذين اشتهروا بشعرهم الهجائي ضد الحكم العثماني: العلامة الشاعر أبي عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني؛ من ذلك قوله: (الزياني، 2013، صفحة 327) (الراشدي، 2013، صفحة 59)

أَمَنْ قَادَرُ بَإِلَهِ يَحْمِي تَلَمَّسَانْ
بَنَّا أَلَسْدُ ذُو الْقَرْنَيْنِ لِلنَّاسِ رَحْمَهُ
فَإِنَّ بِيهَا مِنْ قَوْمٍ يَأْجُوجُ" أَخَوَانَا
سَمَعْنَا حَدِيثًا صَادِقَ النَّقْلِ رَبِّهِ
فِيَالْيَتَّةِ مِنْ شَوْكَةِ التُّرْكِ هَنَانَا
وَلَكِنْ وَرَاءَ أَلَسْدِ عَمِ فُسَادُهُمْ
بَأَنَّ جَنْسَ التُّرْكِ فِي الْأَرْضِ أَخَوَانَا
وَهُمْ أَفْسَدُوا فِي الْغَرْبِ كُفْرًا تَلَمَّسَانْ

أيضا قول العلامة مسلم بن عبد القادر (الزياني، 2013، صفحة 327):

أَدَبُهُمْ رَبُّهُمْ لَمَّا طَغَوْا
فَأَشْتَغَلُوا بِالظُّلْمِ لَيْسَ مَنْ عَدْلُ
عَرَفُهُمْ بِقَدَرُهُمْ لَمَّا بَغَوْا
فَأَخَذُوا أَخَذًا وَبَيَلًا "بِالْمَهْلِ"

5. الخاتمة:

وهكذا يمكن أن نخلص إلى أن السياسة التسلطية، التي سلكها عدد من بايات الغرب الجزائري أواخر الحكم العثماني، والتي اتسمت بكثير من التجاوزات بلغت حد الاضطهاد والسجن والقتل لجموع المتدينين من العلماء والفقهاء ورجال الزوايا والقضاة من مراجع الأمة - وهم صفوة المجتمع وخيرته- إلى جانب المثقفين من الأدباء والشعراء... وغيرهم؛ قد أفضت إلى ظهور عواقب وخيمة ليس أقلها: تدهور العلاقة بين سلطة البايات وبين العلماء والمثقفين وعموم السكان في تلك الفترة. فغير بعيد كانوا دعائم قوة واستقرار وتبادل للمصالح، لتتحول بفعل تلك السياسة التسلطية والممارسات التعسفية الجائرة عكس السابق؛ فكان ذلك إيذانا لتعميق الفجوة بين الجانبين وزيادة نفور الساكنة وحدوث القطيعة بين الطرفين. مما مهد؛ بل فتح الطريق لحدوث الكثير من التمردات واندلاع الثورات الشعبية المناهضة والمنددة بالتسلط القائم ضد الحكام الظالمين؛ فضلا عن نزيف الهجرة الذي طال نخب الأمة ومراجعتها الروحية والعلمية. تسبب كل ذلك في حالة من التفكك والضعف العام سلطة ومجتمعاً. وقد شكلت تلك الحقيقة المأسوية المرأة العاكسة لما آلت إليه الأوضاع المحلية في الإيالة العثمانية بالجزائر؛ والتي انتهت فصولها الدرامية -في الأخير- إلى زوال الوجود العثماني وقبره من قبل الغزاة الفرنسيين المحتلين -بعد حصار مدينة الجزائر بحريا وعسكريا لمدة 03 سنوات- انتهى باستسلام الداوي حسين في 05 جويلية 1830م، وسقوط مدينة الجزائر. ليبدأ فصلا مأسويا جديدا في ظل احتلال فرنسي استيطاني غاشم سيذيق الجزائريين مرّ العذاب وأشدّه على مدار قرن وثلاث القرن.

6. قائمة المراجع:

1. إبراهيم عبو، (2016)، الثورات المحلية في الجزائر خلال العهد العثماني وموقف العلماء منها، مجلة متون العلوم الاجتماعية، المجلد 08، العدد 03.
2. الراشدي ابن سحنون، (2013)، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق: المهدي البوعبدلي، دار المعرفة الدولية، الجزائر.
3. ابن ميمون، (1981)، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق: بن عبد الكريم محمد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
4. الناصري أبوراس، (1990)، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
5. الجامعي الفاسي، (2003)، فتح مدينة وهران، تحقيق: مختار حساني، جامعة الجزائر، الجزائر.
6. الزهار، أحمد شريف، (1980)، مذكرات أحمد شريف الزهار 1754-1830، تحقيق: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر.
7. العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي، (2011)، الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعفري الناطق بخرفات الجعسوس سيء الظن الكسنوس، تحقيق: عبد الحق شرف، وهران: رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث.
8. بن عبد القادر مسلم، (1974)، أنيس الغريب والمسافر (تاريخ بايات وهران المتأخر)، تحقيق: رابح بونار، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
9. بن عمر حمدادو، (2017)، المصادر التاريخية العربية بين تخليد فتح وهران والمرسى الكبير والطموح لاسترجاع الأندلس: دراسة نماذج، مجلة عصور الجديدة العدد 26.
10. بن يوسف الزباني، (2013)، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق: المهدي البوعبدلي، دار المعرفة الدولية، الجزائر.
11. توفيق دحماني، (2003)، النظام الضريبي بباليك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني 1779-1830، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، الجزائر.
12. طوبال فاطمة الزهراء، (2019)، النخب الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد الدايات (1671-1830)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، الجزائر.

13. فوزية لزغم، (2014)، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي 925-1245هـ / 1520-1830م، وهران: أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، الجزائر.
14. قدور بوجلال، (2016)، مظاهر التقارب والقطيعة بين العلماء والسلطة العثمانية في بايلك الغرب فترة الاديات 1671-1830، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، الجزائر.
15. آغا بن عودة المزاري، (2009)، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا الى أواخر القرن التاسع عشر (المجلد 01)، تحقيق: يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر.
16. محمد بوشنافي، (2014)، معسكر المجتمع والتاريخ، موقف علماء معسكر من بعض القضايا السياسية للجزائر خلال العهد العثماني، مكتبة الرشاد، الجزائر.
17. ناصر الدين سعيدوني، (1984)، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
18. يحي بوعزيز، (1988)، دور العلماء والرباطات في تحرير مدينة وهران من أيدي الأسبان، دراسات مغربية، الجزائر.
19. يحي بوعزيز، (1991)، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.